العيارون والشطار في ظل التسلط الأجنبي
" بني بويه "
334-447هـ/945- 1055 م

أ . د. شكران خربوطلي(*)

كان للتسلط الأجنبي المتمثل في بني بويه والسلاجقة دور كبير في ازدياد الفجوة بين الحاكمين والمحكومين، ونتيجة لذلك التسلط الأجنبي ورداً عليه ازدادت حركة المقاومة الشعبية وعلى رأسها حركة العيارين والشطار.

ففي العصر البويهي 334-447هـ/945-1055م أقلق العيارون والشطار بال السلطات البويهية حيث كانوا يصطدمون بها دائماً حتى إنهم أعيوهم، ولم تسلم دور رجال الحكومة ولا أرواحهم من العيارين حيث قتلوا الكثيرين من رجالات الدولة ومن المتعاونين معهم.

وقد تركزت تحركات العيارين والشطار في المدن العباسية وخاصة بغداد عاصمة الخلافة العباسية، حيث تميز المجتمع البغدادي بتعقد حياته، وتطور سكانه، واستطاعت حركة العيارين والشطار استقطاب عناصر كثيرة من أصحاب المهن والصناعات الصغيرة والعاطلين والمتذمرين من السياسة القائمة.

---

*) جامعة دمشق

كل تلك العناصر وحد بينها الانضمام إلى حركة العيارين والشطار التي تنادي بمبادئ أساسية تدعو إلى تحقيق العدالة والمساواة في المجتمع العباسي، ونبذ التمايز والتفرقة.

ورغم قساوة السلطة البويهية في تتبع وإخماد حركة العيارين والشطار إلا أنها لم تستطع أن تقضي عليهم حيث استطاعوا رغم ذلك قيادة حركة المقاومة الشعبية، وبلغ من شأنهم أن السلطة كانت ترسل لهم الجيوش للقضاء عليهم فلا تنال منهم، إن لم تهزم أمامهم، وكانت تتحطم هيبة الدولة بسبب ذلك، فكانت حركتهم ثورة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية الجائرة، وكثيراً ماسرقوا ونهبوا وقتلوا، لكن عملهم كان موجهاً ضد مياسير القوم ومن تبعهم.

لقد استطاع بنو بويه وهم من بلاد الديلم أن يشغلوا دوراً في التاريخ العربي الإسلامي، منذ أوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي بعد أن تمكن معز الدولة من دخول بغداد في عام 334هـ / 945 م وبسط نفوذ البويهيين عليها[1].

وأقام بنو بويه في بغداد أمارة وراثية، مارسوا من خلالها تسلطاً على الخلفاء وعلى عامة الناس فقاموا بخلع المستكفي لاتهامه بالتآمر والاستنجاد بالحمدانيين، وكانت سياسة بني بويه مع الخلفاء العباسيين تنطوي على إضعاف نفوذهم والاستئثار بالحكم [2].

وهكذا ساء حال الخلافة العباسية وأصبح الخليفة لعبة بيد البويهيين ينصبونه ويعزلونه، ويلحقون الأذى به، والاعتداء عليه، حتى صار الخليفة أشبه ما يكون بالموظف يخصص له الأمير البويهي راتباً. وكانوا ينصرفون حسب مشيئتهم في تخصيص تلك الرواتب، فقد جعل معز

---

1) حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص11.
2) الزبيدي : العراق في العصر البويهي ص36.

الدولة للخليفة المستكفي خمسة آلاف درهم في اليوم [3] ثم خفض ذلك المرتب إلى ألفي درهم يومياً عندما عين المطيع [4]، وتلقب الحكام البويهيون بلقب أمير، وأنهم استخلفوا وظيفة أمير الأمراء [5].

وحكم البويهيون كأجانب، لاتهمهم شؤون الأهلين، ولا يعنيهم إلا الحصول على أكبر ما يمكن الحصول عليه من الوارد بالضرائب، وبغيرها، وبدل من أن يدفعوا رواتب لجندهم، ذهبوا إلى إقطاعهم الأراضي والقرى، ويأخذون من وارد ضرائبها بدل الرواتب، وهكذا قامت بداية الإقطاع العسكري إذ أن الأراضي والقرى وزعت بالإقطاع على الجند والقادة، كما أعطيت نسبة أقل بالضمان لبعض المدنيين[6].

ونتيجة للسياسة الزراعية في العصر البويهي، قاسى الفلاحون من الضرائب العالية، ومن قلة الرقابة على الجباة، ومن تدهور نظام الري، رغم ما قام به بعض الأمراء البويهيين من إصلاحات في العراق مثل معز الدولة، وعضد الدولة. وكان من آثار إهمال الري حدوث فيضانات متكررة أضرت بالزراعة في السواد.

أمام هذا الوضع المتردي تصاعد نشاط العيارين والشطار بشكل واضح، وكان لهم دور مميز في إقلاق السلطة الغازية، وتحدي أجهزتها وأتباعها من ذوي النفوذ السياسي والاقتصادي [7] بالرغم من قساوتها وعنفها. ولا نحسب أنفسنا مغالين إذا قلنا أن العصر البويهي بالعراق هو بحق العصر الذهبي للعيارين.

ومن أجل تأكيد شرعية حركتهم في هذا العصر فقد تم إلحاق عيارتهم وشطارتهم بالفتوة المسندة إلى أصل ديني. الأمر الذي أدى إلى

---

3) الزبيدي : العراق في العصر البويهي ص36.
4) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج2 ص87.
5) أمين : العراق في العصر السلجوقي ص25.
6) الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص88.
7) السامرائي : الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ص168.

تفريق جموعهم إلى فرق، وطوائف متعددة بل متناحرة، فأخذوا يتحزبون ويتعصبون، ويفتكون، وينهبون، ويقتلون، ويغتصبون، باسم طريقة من الطرائق المعزوة إلى الدين. فكان لذلك أسوأ الأثر في إجهاض انتفاضاتهم الأمر الذي أتاح للدولة – على ضعفها – أن تصمد أمام ضرباتهم المتلاحقة، وأن توقع بهم الهزيمة مراراً، ولكن من غير أن تتمكن من القضاء عليهم أو على حركتهم بشكل حاسم أو جذري على الرغم من جدية الدولة وضخامة القوات التي كانت تعدها لمطاردتهم[8].

فعندما وقعت الحرب ببغداد بين أمير العراق الديلمي البويهي معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه 334-356هـ/945-967 م وأمير الموصل الربعي التغلبي ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان 317-358هـ /929- 969 م ساند ابن سير زاد أمير أمراء العراق السابق 334هـ/945 م ناصر الدولة بينما أيد الخليفة المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر 334-363 هـ/946-974 م معز الدولة، وقد استعان ابن شيرزاد بالعيارين على حرب معز الدولة (فكان يركب الماء وهم معه يقاتل الديلم) [9]، ولم تنته هذه الحرب بنصر حاسم لأحد الطرفين فجنح كلاهما للمصالحة، واستقر الصلح بينهما 336هـ/946 م. وهكذا اتحد العرب والأتراك والعيارون ضد بني بويه منذ الوهلة الأولى[10].

ولقد وجد الديالمة صعوبة كبيرة في فرض سلطانهم على منطقة البطيحة الواقعة بين واسط والبصرة إذ سيطر عليها قاطع طريق شاطر ذو طموح سياسي من قرية الجامدة من أعمال واسط اسمه عمران بن شاهين[11].

8) النجار : حكايات الشطار والعيارين ص148.
9) ابن الأثير : الكامل ج8 ص453-454.
10) المولى : العيارون والشطار البغاددة ص105.
11) ابن الأثير : الكامل ج8 ص481.

وفي مدى تسع سنوات نهايتها 338هـ/949 م استفحل أمر ابن شاهين بما اجتمع إليه من الأتباع والأعوان، وكان أكثرهم من الصيادين واللصوص، واستعد بالسلاح واتخذ المعاقل على تلول البطيحة، وحاول معز الدولة إخضاعه غير مرة بيد أنه فشل فاضطر إلى مصالحته 339هـ/ 950 م وقلده البطيحة. ومع ذلك بقي ابن شاهين على شطارته وعيارته، ففي 344هـ 955 م هاجم قافلة تجارية مارة بالبطيحة بها أموال لمعز الدولة من أهواز، واستولى عليها فأرسل إليه معز الدولة في رد ما نهب فرد عليه أمواله فقط، واحتجز أموال التجار، فتداعت دعائم الصلح بينهما[12]. وبينما كان معز الدولة يجهز الجيوش لمحاربة ابن شاهين وافته المنية، الأمر الذي حال دون ذلك، وبقي ابن شاهين في عز إلى أن وافته المنية 369هـ/ 979 م.

وقد كان أثناءها خطر العيارين شديداً يعملون ما يريدون لأن موقف السلطة البويهية من العداءات المتكررة من جانب الروم على منطقة الحدود الجزرية الشامية 361هـ/971 م سلبية ففجروا الموقف ضد السلطة البويهية حتى اشتد خطرهم 362هـ/972 م وعملوا ما أرادوا وأصبحوا من الكثرة ببغداد بحيث أنهم إذا تحركوا ملكوا [(13)].

ثم تجدد خطرهم 363هـ/947 م، واقتصرت كبسات العيارين على الجانب الغربي الذي كان مفتوناً بينما كان الجانب الشرقي آمناً، ولم يسكن الأثرياء بعض السكون إلا بعد أن قبض ابن تقيه على جماعة من رؤساء العيارين وقتلهم[(14)].

وعاد وتجدد خطر العيارين والشطار مرة أخرى سنة 364هـ/974م عندما هاجموا أعوان البويهيين (حتى ركبوا الخيل وتلقبوا

12) ابن الأثير : الكامل ج8ص510.
13) المقدسي : أحسن التقاسيم ص130.
14) ابن الأثير : الكامل ج8ص632.

بالقواد، وغلبوا على الأمور وأخذوا الخفارة عن الأسواق والدروب) [15]، فصارت المكوس والأتاوى تؤدى إليهم نظير الحماية والأمن، وبرز منهم قواد أشهرهم ابن كبرويه، وأبو الدود، وأبو الذياب، وأسود الزبد، وأبو الأرضة، وأبو النوابح[16].

ونشطت حركة العيارين والشطار في الأعوام التالية بين 379-380هـ/989-990م، ففي عام 369هـ /989 م بلغ من نشاطهم أنهم جبوا الناس نهاراً جهاراً، وقتلوا من قاومهم، وتواترت سطواتهم المعروفة بالعملات، والكبسات في نهب الأموال[17].

وفي سنة 384هـ/994 م ثار العيارون والشطار، وعجز نائب العراق عن إخماد ثورتهم، وقد طالبوا السلطة البويهية بإنصافهم، وإنصاف الشعب، فجند البويهيون كل طاقاتهم لقمع الثورة، وتصدوا لها بقوة، فجمد نشاطهم نتيجة لذلك [18] بشكل مؤقت.

وما أن بدأت علائم الضعف على الدولة البويهية في بغداد 408هـ/1017م تظهر حتى استغل العيارون والشطار الظروف المواتية لتحقيق أهدافهم، فقاموا بمصادرة كثير من الأموال العائدة للبويهيين، وأعوانهم، وازداد نشاطهم بشكل واضح في عام 416هـ/1025 م إذ استهانوا بالسلطة البويهية، وبالغوا في التحدي لهم، والاستهانة بأمرهم، فنهبوا خزائن الحاكم البويهي. فضلاً عن أمال التجارة العائدة لرجال السلطة وأعوانها، وقد ترأسهم في ذلك وللمرة الأولى رجل عربي فاتك من قبيلة تميم المضرية النازلة بالبصرة اسمه أبو علي البَرجمي الذي بلغ من السطوة أن أحداً من البغاددة لم يكن يجرؤ على ذكره بغير رتبة القائد[19].

15) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج4 ص107-108.
16) التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ج3 ص159-160.
17) الذهبي : دول الإسلام ج1ص231، الذهبي : العبر ج3 ص11.
18) الذهبي : العبر خ3 ص24. ابن العماد الحنبلي : شذرات ج3 ص106.
19) الذهبي: دول الإسلام ج1 ص253.

ورغم ماحيك عن سطوته وفتكاته، إلا أنه (كان مع هذا فيه فتوة، وله مروءة لم يعرض إلى إمرأة، ولا إلى من يستسلم إليه) [20].

ولعلنا بعد عام 416هـ /1025م وفي أثناء النزاع بين عماد الدولة أبو كاليجار مرزبان بن سلطان الدولة صاحب الأهواز وخوزستان، وفارس، وبين عمه جلال الدولة حول ملكه بالعراق يستغل العيارون والشطار هذا النزاع وضياع هيبة الدولة ليكثروا من نشاطهم في بغداد ضد أثرياء أهل بغداد ومياسيرهم ليلاً ونهاراً في جرأة متناهية دونما خشية من السلطان حتى بات ظهورهم مصدر هلع، وفزع للطبقة الثرية، وللحد من نشاطهم طلبت منهم السلطة في بغداد ترك البلد. إلا أنهم تمردوا، ورفضوا الطلب، واستهانوا بالسلطة، وهاجموا مضارب الجنود الديالمة وتصاعد خطرهم في سنة 420هـ/1029م بزعامة أبي يعلي الموصلي الذي هاجم رجالات الشرطة في بغداد، وقتل بعضهم، وهو يحمل السيوف المسلولة مع رجاله، فاضطر بعض أفراد الجيش البويهي إلى نقل خيولهم إلى دورهم، وظل أبو يعلي هذا خارجاً على الحكومة مدة تقرب من ثلاث سنين كان يشن خلالها الهجمات، وفي إحدى الهجمات قتل هو وأتباعه خمسة من (الرجالة وأصحاب المسالح) [21].

ووسع العيارون نشاطهم منذ عام 421هـ/1030م بقيادة البرجمي حيث سطا، وأتباعه على مخازن التجار، ودور الأغنياء، وقتلوا صاحب الشرطة 424 هـ /1033م [22]، بعد أن تصدى لهم في هجومهم على أسواق الكرخ، وأصبح البرجمي شخصية معروفة، ومشهورة لدى النس ببغداد، ومن شدة خوف الناس منه، ومن أتباعه كانوا إذا دخلوا إلى الدار التي يريدون سرقتها لا يستطيع أحد من الجيران أن يغيث المسروقين

---

20) ابن الأثير : الكامل ج9 ص439. الذهبي : دول الإسلام ج1 ص253.
21) ابن المعمار الحنبلي : الفتوة ص289.
22) ابن كثير : البداية والنهاية ج12ص35.

محما استغاثوا، وكانوا لا يتورعون عن سرقة الدار حتى إذا كانت مجاورة لدار المملكة[23].

وازدادت شعبية البرجمي لحد المطالبة بأن يخطب له في الجامع [24]، وقد كان يكنى بالقائد أبي علي، ويعكس ذلك مدى إعجاب الطبقة الشعبية بشخصية البرجمي.

وصار له عام 425هـ /1033م من النفوذ والسيطرة ما جعل عمال السلطة البويهية يلتزمون بأوامره، وصار يقف على قدم المساواة مع الخليفة العباسي والوزير البويهي[25].

وفي السنة نفسها 425هـ/1033م أصيبت حركة العيارين والشطار بنكسة كبيرة. وذلك عندما وقع البرجمي في براثن قرواش أمير بني عقيل في شرك نصبه له على ما يبدو جلال الدولة البويهي، ولكن البرجمي افتدى نفسه بمال كثير، فأخذ قرواش الفدية وغدر به وأغرقه بدل من أن يطلق سراحه[26]. وقد حاولت السلطة البويهية استثمار مقتل البرجمي لتفتيت حركة العيارين، فأصدرت أمر الأمان لهم، ودعتهم للتفاوض، وطلبت منهم في اجتماع موسع الانخراط في مؤسسات السلطة، أو مغادرة البلد فخرجوا من البلد، ولكن بشكل مؤقت [27].

ولعل إخراجهم من البلد لم يحل المشكلة، وقتل البرجمي لم يضعف شوكتهم، بل دفعهم لمزيد من النشاط. فما لبثوا أن عادوا، وعجز الحاكم البويهي جلال الدولة التصدي لهم، بل والأكثر من ذلك فقد سيطروا على الوضع، وأصبحت بغداد من الناحية الفعلية بأيديهم [28]، ففي الوقت الذي

---

23) ابن الجوزي : المنتظم ج8 ص44.
24) ابن الأثير : الكامل ج9 ص439.
25) النجار : حكايات الشطار والعيارين ص130.
26) ابن الأثير : الكامل ج9 ص438. الذهبي : دول الإسلام ج1 ص253.
27) جاسم : المقاومة العربية ص302.
28) ابن الجوزي : المنتظم ج8 ص82.

انحل فيه أمر البويهيين عظم أمر العيارين، وصاروا يأخذون الأموال ليلاً، ونهاراً، ولا مانع لهم لأن الجند يحمونهم من السلطان وأعوانه ونوابه، والسلطان عاجز عن قهرهم [29]، الأمر الذي يُفسر بأن جند الأتراك، كانوا يحصلون على جزء من النهب لقاء. سكوتهم، وقد ذكر ابن تغري بردي ذلك بالقول : (وكان العيارون في دور الأتراك والحواشي يقيمون نهاراً، ويخرجون ليلاً، والأتراك والحواشي تقوم معهم في الباطن، فكانوا يخرجون ليلاً، ويعملون العملات، وأفسدوا وفعلوا أفعالاً قبيحة، وأظهروا الإفطار في شهر رمضان علناً وعلى مرأى الناس، وكان ذلك كله بمواطأة الأتراك) [30].

ولم تسلم بغداد نفسها من شرهم إذ بلغوا أطرافها، ووصلوا إلى جامع المنصور بالرحبة (وأخذوا ثياب النساء في المقابر) [31].

ومرة من المرات اقتحموا السجن، وفتحوا بابه، وقتلوا سبعة عشر شرطياً، فعاجت بغداد بالفوضى لانتشارهم في كل مكان وتسلطهم، وجبايتهم الأسواق، وأخذوا الضرائب التي كان يأخذها أرباب الأعمال، وكان مقدمهم الطقطقي، وعلي الزيبق [32] صاحب أكبر سيرة شعبية في التراث الشعبي العربي.

نخلص من كل ذلك أن العيارين والشطار أرهبوا بغداد بشطارتهم وفرضوا سيطرتهم عليها، وداخلوا الشرطة كأعوان، وأصحاب مسالح، وظهر منهم زعماء كبار، فكانوا شوكة في صدرالسلطة البويهية، فاضطرت الدولة أحياناً إلى الحد من شوكتهم وسطوتهم بقتل بعضهم، وأحياناً إلى مصانعتهم، والاستعانة بهم في غزو الروم، وفي إعادة الهدوء للعاصمة المضطربة بالفتن دائماً، وشارك أجناد الأتراك العيارين في

---

29) ابن الأثير : الكامل ج9ص440 . الذهبي : دول الإسلام ج1 ص254.
30) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج4 ص281.
31) ابن الأثير : الكامل ج9ص440 .
32) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج5 ص50.

نشاطهم، وأبعدوهم مرة، وصاحبوهم مرات، الأمر الذي جعل حركتهم تبدو جزءاً مهماً من حركة المقاومة الشعبية للتساط الأجنبي على بغداد، لأنهم جماعات من عامة بغداد لهم أهداف ثورية، ولم تكن غايتهم اللصوصية و القتل.

المصادر والمراجع :

1- ابن الأثير : (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر 1965م.

2- أمين : (حسين)، العراق في العصر السلجوقي، بغداد، مطبعة الإرشاد 1965م.

3- ابن تغري بردي : (جمال الدين أبي المحاسن يوسف)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية 1933م.

4- التوحيدي : (أبو حيان)، الامتاع والمؤانسة، تحقيق، أحمد أمين، القاهرة، لجنة التأليف.

5- جاسم : (طالب)، المقاومة العربية، بغداد 1985م.

6- ابن الجوزي : (أبو الفلرج عبد الرحمن بن علي)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الهند حيدر آباد، المطبعة العثمانية 1358هـ.

7- حسنين : (عبد المنعم محمد)، سلاجقة إيران والعراق، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1975م.

8- الدوري : (عبد العزيز)، مقدمة في الاقتصاد العربي، بيروت، دار الطليعة، ط1، 1969م.

9- الذهبي : (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد)، دول الإسلام، حيدر آباد، الهند، دائرة المعارف العثمانية، ط2 1365هـ.

10- -----------------------------، العبر في خبر من عبر، تحقيق، صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، الكويت، 1966م.

11- الزبيدي : (محمد حسين)، العراق في العصر البويهي، القاهرة، دار النهضة العربية 1969م.

12- السامرائي : (خليل)، وآخرون، الدولة العربية في العصر العباسي، الموصل، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، 1988م.

13- السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)، تاريخ الخلفاء، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار نهضة مصر.

14- عبد المولى : (محمد أحمد)، العيارون والشطار البغاددة في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية مؤسسة شباب الجامعة.

15- ابن العماد الحنبلي : (أبو الفلاح عبد الحي)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، المكتب التجاري.

16- ابن كثير : (عماد الدين اسماعيل بن عمر)، البداية والنهاية، القاهرة، مطبعة السعادة 1932م.

17-ابن مسكويه : (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب)، تجارب الأمم وعواقب الهمم، القاهرة، مطبعة التمدن 1030م.

18- المقدسي : (شمس الدين أبو عبد الله محمد)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل ط2، 1906م.

19- ابن المعمارالحنبلي : (أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم)، الفتوة منذ القرن الأول للهجرة إلى القرن الثالث عشر، تحقيق مصطفى جواد وآخرون، بغداد، مطبعة شفيق، ط1 1958م.

20- النجار : (محمد رجب)، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، الكويت، دار السلاسل، ط2 1989م.